نظرية التحليل النفسي واتجاهاتها الحديثة في خدمة الفرد

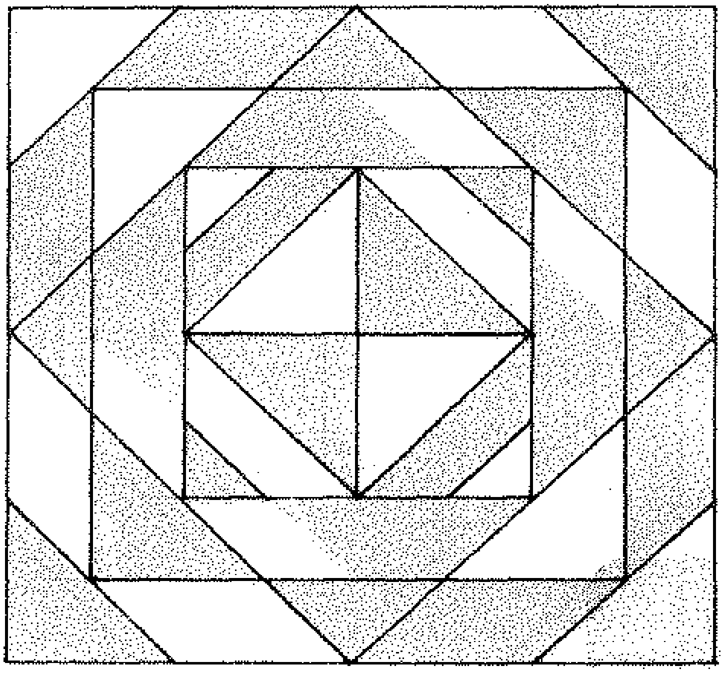

دكتور علي إسماعيل علي
بكالوريوس خدمة اجتماعية
دبلوم معهد العلوم الاجتماعية (شعبة الخدمة الاجتماعية)
دكتوراه في الآداب (تخصص خدمة اجتماعية)
من معهد العلوم الاجتماعية - كلية الآداب - الإسكندرية

١٩٩٥

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٧٠١٦٣

Bibliotheca Alexandrina
0183437

نظرية التحليل النفسي واتجاهاتها الحديثة في خدمة الفرد

دكتور علي إسماعيل علي
بكالوريوس خدمة اجتماعية
دبلوم معهد العلوم الاجتماعية (شعبة الخدمة الاجتماعية)
دكتوراه في الآداب (تخصص خدمة اجتماعية)
من معهد العلوم الاجتماعية بكلية الآداب - الإسكندرية

١٩٩٥

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن المتتبع للتطور التاريخى للنظرية والممارسة فى خدمة الفرد ، سيجد أن لنظرية التحليل النفسى تأثيرا كبيرا ودورا واضحا فى هذا التطور. فقد استوعبت خدمة الفرد أفكار هذه النظرية عن الشخص (حاجاته ، ورغباته، ودوافعه ، وصراعاته) الأمر الذى ساعد خدمة الفرد على فهم بعض جوانب النجاح والفشل فى هذه الأمور كما ساعدها أيضا على تطوير إطار عمل للتدخل مع الأفراد وهو الإطار أو النموذج التحليلى الذى مازال سائدا فى ممارسة خدمة الفرد فى عالمنا العربى حتى الآن . بل إن التراث النظرى لخدمة الفرد يؤكد على أن نظرية التحليل النفسى قد أثرت ـ بشكل أو بآخر ـ فى غالبية النماذج النظرية التى ظهرت فى خدمة الفرد بعد ظهور هذه النظرية .

لذلك ، وبعد مرور فترة تزيد عن السبعين عاما ـ منذ أن بدأ تأثير نظرية التحليل النفسى على خدمة الفرد ـ حدث خلالها العديد من التطورات والاتجاهات الحديثة فى نظرية التحليل النفسى والتى كان لها بدورها تأثير واضح على النظرية والممارسة فى خدمة الفرد ، ووجهت إلى هذه النظرية العديد من الإنتقادات وتباينت تجاهها الأفكار والآراء ـ رأينا أنه من المفيد أن نقوم ـ من خلال هذا الكتاب ـ باستعراض العلامات المميزة والأفكار الأساسية والاتجاهات والتطورات الحديثة فى هذه النظرية وتأثيرها على خدمة الفرد ، مع تقييم الجوانب المفيدة فيها التى حفزت خدمة الفرد للإتجاه نحو النضج المهنى والجوانب الأخرى التى أعاقت هذا النضج ، آملين أن يكون هذا الجهد المتواضع ذا فائدة لزملاء المهنة فى ممارستهم المهنية لطريقة خدمة الفرد .

ويتكون هذا الكتاب من أربعة فصول ، يتناول الفصل الأول منها البناء العلمى لنظرية التحليل النفسى ، وفيه يتم مناقشة نظرية فرويد عن

الشخصية ، ومفاهيم وتكنيكات هذه النظرية وتأثيرهما على خدمة الفرد .

ويستعرض الفصل الثانى التطور التاريخى لتأثير نظرية التحليل النفسى على خدمة الفرد ، فى حين يناقش الفصل الثالث الاتجاهات الحديثة فى هذه النظرية مع التركيز على نظرية سيكولوجية الأنا ونظرية العلاقات بالموضوع وتأثيرهما على خدمة الفرد .

وفى الفصل الرابع نقوم بتحليل نقدى لنظرية التحليل النفسى نقدم من خلاله أبرز سماتها الإيجابية ونناقش مدى كفاية هذه النظرية بكونها أساسا نظريا يمكن للإخصائى الاجتماعى الاعتماد عليه والاسترشاد به فى ممارسة خدمة الفرد .

والله الموفق والمستعان ،،،

علي إسماعيل

يناير ١٩٩٤

To: www.al-mostafa.com

الفصل الأول

البناء العلمي لنظرية التحليل النفسي

الفصل الأول

البناء العلمي لنظرية التحليل النفسي

مقدمة :

عندما ظهر علم النفس بكونه مبحثا علميا مستقلا في ألمانيا في منتصف القرن التاسع عشر ، حدد هدفه في تحليل الشعور لدى الإنسان الراشد السوي ، وكان ينظر إلى الشعور بوصفه مكونا من عناصر بنائية ترتبط ارتباطا وثيقا بعمليات أعضاء الحس . فالإحساسات البصرية باللون مثلا ترتبط بالتغييرات الكيماوية الضوئية الحادثة في شبكة العين ، كما ترتبط النغمات الصوتية بما يحدث في الأذن الداخلية . وتنتج الخبرة المركبة من الالتحام بين عدد من الأحاسيس الأولية والصور والمشاعر . وكان هدف علم النفس اكتشاف العناصر الأساسية في الشعور وتحديد الكيفية التي تتكون بها مركباته[1]. فلقد كان علم النفس في القرن التاسع عشر إذن ينظر إلى الإنسان على أنه عاقل rational له إرادته ومحكوم بقدره .

ولكن " سيجموند فرويد S.Freud " الطبيب النفسي الذي ولد بمدينة " فريبورج" بمقاطعة مورافيا بالنمسا عام ١٨٥٦ وتوفي بمدينة لندن عام ١٩٣٩، أحدث ثورة علمية عندما طرح نظريته عن التحليل النفسي التي قدمت نموذجا جديدا يمكن عن طريقه دراسة سلوك الإنسان . فقد ركز "فرويد" على عدم عقلانية الإنسان ، وعلى تأثير الدوافع والحوافز غير المعروفة لدى الإنسان على سلوكه ، لذلك فإنها تكون خارجة عن سيطرته . وبذلك أضفت نظرية التحليل النفسي معنى على أنواع السلوك الأخرى الغريبة أو المتعذر تحليلها أو تفسيرها مثل أنواع السلوك التي ارتبطت بالإضطراب العقلي وبخاصة الهيستريا . كما قدمت هذه النظرية مدخلا

لنوع جديد من العلاج هو العلاج النفسى Psychotherapy لمرضى العقول عن طريق استخدام الوسائل السيكولوجية .

وقد ذهبت تطبيقات اكتشافات " فرويد" إلى مدى أبعد بكثير من علاج الأمراض النفسية ، ذلك أن الميكانيزمات الأساسية فى التعامل مع السلوك العصابى لم تكن مختلفة عن تلك المستخدمة فى التعامل مع السلوك السوى . فقد نظر فرويد إلى الإختلاف بين السلوك السوى والسلوك العصابى على أنها مسألة درجة فقط ، لذلك لم تكن هناك حدود واضحة بينهما ، وأصبح من غير الممكن النظر إلى الصحة النفسية والمرض النفسى بكونها حالات مستقلة ومنفصلة بعضهما عن بعض ، وأدى ذلك إلى التوصل لمدخل جديد يقدم طريقة جديدة للتدخل فى ألوان المعاناة الإنسانية، وأصبح السلوك الذى كان يعد فى السابق خاطئا ومتعمدا وناتجا عن فساد الأخلاق أو ضعفها ، ينظر إليه من خلال هذا المدخل على أنه نتاج للضرر أو المرض النفسى .

وبذلك قدمت نظرية التحليل النفسى مفهوما جديدا عن الإنسان، هو مفهوم الإنسان السيكولوجى . وأصبح هذا المفهوم الجديد بديلا عن وجهة نظر علم النفس فى العصر الفيكتورى التى كانت تنظر إلى الإنسان بكونه مستقلا عقليا وأخلاقيا وبالتالى فإنه يستحق العقاب عن أفعاله الخاطئة .

لقد أثّرت نظرية التحليل النفسى فى كل أشكال الفكر الحديث تقريبا، وشكلت جانبا مهما من الإطار النظرى المرجعى لخدمة الفرد فى الأربعينات والخمسينات ، وما زالت خدمة الفرد فى الوطن العربى تمارس على أساس المدخل التقليدى الذى يستند فى غالبيته على هذه النظرية مع عناصر بسيطة ومتفرقة من نظريات أخرى عديدة[٢] . كما أن غالبية الإخصائيين الاجتماعيين الذين يعملون بالمجالات المختلفة بالوطن العربى قد تلقوا

دراستهم النظرية والعملية وفقا لهذا المدخل . لذلك فإننا سنقوم فى هذا الفصل بمناقشة البناء العلمى لنظرية التحليل النفسى باعتبارها تشكل الجانب الأكبر من البناء المعرفى النظرى الذى يوجه غالبية الممارسة الحالية لخدمة الفرد فى الوطن العربى . وستتم هذه المناقشة من منطلق أن نظرية التحليل النفسى تتكون من :

١ ـ نظرية عن الشخصية .

٢ ـ شكل خاص من أشكال العلاج النفسى هو التحليل النفسى .

٣ ـ منهج معين من مناهج البحث .

وقد تطورت هذه الجوانب الثلاثة وارتبطت كلها باسم " سيجموند فرويد" وهى جوانب مرتبطة ويتداخل بعضها فى بعض ارتباطا وثيقا ، ومع ذلك فإننا سنتناول فى هذا الفصل تلك الجوانب التى تأثرت بها خدمة الفرد ـ بشكل أو بآخر ـ من نظرية التحليل النفسى وهما الجانبان الأول والثانى من هذه الجوانب . وعلى ذلك فإن اهتمامنا فى هذا الفصل سينصب على الجوانب التالية وتأثيرها على خدمة الفرد :

١ ـ نظرية فرويد عن الشخصية .

٢ ـ مفاهيم نظرية التحليل النفسى وتكنيكاتها .

على أن نستعرض فى الفصل الثانى التطور التاريخى لتأثير نظرية التحليل النفسى على خدمة الفرد .

أولا ـ نظرية " فرويد" عن الشخصية وتأثيرها على خدمة الفرد :

درس " فرويد" الشخصية من خلال عدة أبعاد ، واعتبر أن هذه الأبعاد مجرد طرق مختلفة للنظر إلى نفس الظاهرة العقلية من خلال منظورات مختلفة دون أن يكون لأى منظور منها أولوية على المنظورات الأخرى ، كما أنها ليست مستقلة بعضها عن بعض وإنما يوجد بينها اعتماد متبادل ، بالإضافة إلى أنه لايمكن فهم أى بعد من هذه الأبعاد دون الإشارة إلى الأبعاد الأخرى . كما يجب النظر إلى الظواهر العقلية ككل من خلال هذه الأبعاد فى وقت واحد ، ومن خلال التفاعل الدينامى بينهم . وسنشير بشيء من التفصيل لكل بعد من هذه الأبعاد ، مع توضيح تأثير كل منها على النظرية والممارسة فى خدمة الفرد فيما يلى :

١ ـ البعد الطبوغرافى أو المكانى :

ويقصد به تحديد مراكز الظواهر العقلية فى الجهاز النفسى . ويعرف هذا البعد أيضا بنظرية فرويد عن الجهاز النفسى .

وفى هذا البعد قام فرويد بعمل تشريح نوعى للشخصية يختبرها فيه من خلال عدة طبقات وعمليات هى :

أ ـ الشعور The Consciousness : ويوجد على سطح العقل ، ويتكون من مجال ضيق من الأنشطة العقلية التى نستطيع إدراكها فى وقت معين .

ب ـ ماقبل الشعور The Preconsciousness: ويقع فى مكان متوسط بين الشعور واللاشعور . ويشير إلى ذلك الجمع من الأفكار ، والمشاعر ، والذكريات ، والمدركات التى لاتكون متوفرة بشكل فورى للشعور ولكن يمكن استدعاؤها إليه بسهولة .

جـ ـ اللاشعور The Unconsciousness: ويحتوى على الدوافع الغريزية

البدائية الجنسية والعدوانية التى تكبت تحت تأثير المعايير الاجتماعية والأخلاقية التى ينشأ فيها الفرد .

ويعتبر مفهوم اللاشعور أساس النظرية التحليلية الفرويدية ، فتشير هذه النظرية إلى مسئولية المواد اللاشعورية عن العديد من أفعالنا ومشاعرنا وأفكارنا الشعورية وتؤثر على علاقتنا مع الآخرين دون أن ندرك ذلك(٣) .

فلقد بيّن فرويد أن العقل لايهمل الأشياء التى ننساها وإنما يرسلها إلى منطقة اللاشعور ، وأن " نسيان" معظم هذه الأشياء لايتم بشكل سلبى وإنما يتم إخراجها بشكل مقصود من منطقة الشعور لأنها تثير لدينا الإضطراب، وترسل إلى منطقة اللاشعور عن طريق عملية الكبت . ولكن هذه المواد المراقبة قد تنطلق مرة أخرى إلى منطقة الشعور عندما تسترخى الضوابط السيكولوجية - مثلما يحدث فى حالات التنويم المغناطيسى ، والتخدير ، والأحلام - أما خلال ساعات صحونا الطبيعية فإن محتويات اللاشعور تحفظ بإحكام من التسرب إلى منطقة الشعور .

وفى نفس الوقت ، تلعب هذه المواد اللاشعورية دائما بعض الأدوار فى تقرير سلوكنا . فعندما يفضل الشخص فيلما سينمائيا على غيره من الأفلام ، أو يختار امرأة بعينها للزواج منها دون غيرها من النساء ... إلخ، فإنه يفعل ذلك ليس فقط للأسباب التى يخبر بها نفسه وأسرته وأقاربه وأصدقاءه ، وإنما أيضا بسبب الأحداث التى مر بها فى حياته الماضية والتى تخفى عليه الآن . وينتج عن ذلك أن الشخص إذا كان غير راض عن سلوكه ويرغب فى تغييره ، فإن عليه أن يخرج من لاشعوره الذكريات المكبوتة والصراعات المصاحبة لها والتى تسبب المشكلات . وذلك - بالتحديد - هو هدف العلاج النفسى كما أشار إليه فرويد بقوله " أن نجعل

اللاشعوري، شعوريا " .

وأشار فرويد إلى أن العمليات العقلية الموجودة فى الشعور ، وما قبل الشعور تلتزم بقوانين منطقية أطلق عليها فرويد اسم العملية الثانوية Secondary Processوهى عمليات شعورية منظمة ومنطقية من الإدراك ، والتفسير والتقييم ، وهى تخضع لمبدأ الواقعReality principle الذى ترتبط فيه الصور العقلية الخاصة بالتفكير والتقدير والحكم ، بالواقع الخارجى .

أما العمليات العقلية الموجودة فى اللاشعور، فإنها تلتزم بقوانين غير منطقية أطلق عليها فرويد اسم العملية الأولية Primary process التى تخضع لمبدأ اللذة Pleasure principle ويسعى لإشباع اللذة وتحقيق المتعة أو التحرر من التوتر ولا يعطى أى اعتبار للمنطق ، أو الأسباب ، أو الواقع ، أو الأخلاق . ومن الأمثلة على هذه العملية الأحلام ، وهلاوس المرضى الذهانين وأحلامهم ، وهلاوس الواقعين تحت تأثير العقاقير المخدرة وخيالاتهم .

ويرى فرويد، أن تحليل تفكير أى شخص يقدم لنا الدليل على أن عملياته الفكرية تتكون عادة من خليط من العمليات الشعورية واللاشعورية ـ أى من العمليات الأولية والثانوية . فنادرا مايقوم الشخص بشكل كامل بعمليات شعورية منطقية ومنظمة من الإدراك ، والمعرفة ، والتقييم ، والاستنتاج ، دون أن يتأثر بالمشاعر والدوافع اللاشعورية فى شكل تجوال عقلى ، وأحلام يقظة ، وإدراكات وأحكام حرفتها العواطف ، ... الخ. فالناس ليسوا دائما منطقيين وإنما يختلط لديهم الجانب المنطقى بالجانب النفسى .

وقد لاقى مفهوم اللاشعور قبولا واضحا من خدمة الفرد . واقتنع معظم

الإخصائيين الاجتماعيين بأن العمليات العقلية اللاشعورية لاتوجه فقط سلوك عملائهم ، وإنما توجه سلوكهم هم أنفسهم أيضا . لذلك نرى " هوليس F.Hollis" تؤكد على أن " الإخصائي الاجتماعي يحتاج لمعرفة الكثير عن اللاشعور ، وعن طبيعته ، وعن الطرق التي يقوم من خلالها بشكل عام بدوره في الحياة العقلية للفرد وفي سلوكه . فمثل هذه المعارف ضرورية لكل من الفهم التشخيصي لمشاكل التوافق بين الأشخاص ولعلاجها ، لأن المشكلات تتضمن كلا من الشعور ، واللاشعور "[٤] .

ومع ذلك ، فإنه على الرغم من اعتراف " هوليس" بأهمية العمليات اللاشعورية واعتبارها من أسس الممارسة الفعالة فى خدمة الفرد ، فإنها ترى أن الإخصائيين الاجتماعيين فى تعاملهم مع الأفراد لايتعاملون بصفة عامة مع المواد اللاشعورية بالمعنى التحليلى النفسى ، لأن الإخصائى الاجتماعى لايقوم باستدعاء المواد اللاشعورية الحقيقية إلى منطقة الشعور ، وإنما يتعامل مع المواد المكبوحة التى تقع فى منطقة ماقبل الشعور[٥].

ويعنى ذلك أن الإخصائى الاجتماعى يحتاج لأن يكون على فهم صحيح وواع لكل تلك الأنساق الطبوغرافية الثلاثة ـ الشعور ، وما قبل الشعور، واللاشعور ـ لأن الدرجة التى يرتبط بها تدخله فى أى من هذه الأنساق تعتمد على فهمه الكلى للأنساق الفرعية المشتركة فى التشخيص الاجتماعى النفسى . فمن خلال مفهوم اللاشعور يستطيع الإخصائى الاجتماعى أن يتفهم العديد من المواقف التى يقابلها أثناء عمله اليومى . فالطالب الذى يحضر لمقابلة الإخصائى الاجتماعى المدرسى ويطلب منه مساعدته على تنظيم وقته وتوجيهه للأسلوب السليم لمراجعة دروسه ، قد يكون مايريده منه وأتى حقيقة من أجله هو الحصول على الاهتمام والرعاية. والعميل الذى يتجنب الدخول فى علاقة مهنية مع الإخصائى

الاجتماعي ويتهرب من حضور المقابلات معه ، قد يكون السبب اللاشعورى وراء ذلك أنه لايملك القدرة على إقامة مثل هذه العلاقة أو لأنها أمر مخيف بالنسبة له .

ومع ذلك ، فإنه لايكفى أن يكون الإخصائى الاجتماعى قادرا على فهم المغزى اللاشعورى لألفاظ العميل وسلوكه ، وإنما يجب أيضا أن يستجيب لهما بطريقة تجعلهما فى متناول العمليات الشعورية وما قبل الشعورية للعميل. ففى المثال السابق الإشارة إليه ، عندما يساعد العميل الأول على تنظيم وقته ويوجهه للأسلوب السليم فى مذاكرة دروسه ، فإنه بذلك لايقابل حاجته فقط وإنما يظهر له اهتمامه به ورعايته له واستعداده للعطاء. وعندما يقدر خوف العميل الثانى من الدخول فى علاقة مهنية معه ، أو يظهر له أنه سيهتم بحاجته دون أن يتوقع منه الكثير بخصوص هذه العلاقة ، فإنه بذلك يكون قد استجاب لكلا العميلين على المستوى اللاشعورى وعلى المستوى الشعورى الواقعى .

كما يجب أن يسعى الإخصائى الاجتماعى دائما لإشراك قدرات " الأنا" الشعورية لدى العميل فى حل المشكلة . فمن خلال تشخيصه لأسباب المشكلة وتقديره لقدرات العميل ومتطلبات الموقف الواقعى للحياة الذى يجسده هو والعميل ، قد يسعى مع بعض العملاء الذين يعانون من أزمات تشكل لهم ضغوطا تؤدى إلى تدفق مشاعر وصراعات لاشعورية قديمة وتقلل من قدرة الأنا لديهم على التصدى ، إلى مساعدتهم على أن يستعيد الأنا لديهم قدراته التكيفية ، أو أن يطور قدرات جديدة . ومع فئة أخرى من العملاء قد يقود التشخيص إلى تركيز العلاج على الفهم الفكرى والعاطفى - المبنى على مواد قبل شعورية مختارة تناسب مواقفهم - للعلاقة بين ماحدث لهم فى الماضى وبين مايفعلونه فى حياتهم الآن ، بهدف نهائى